خواطر في فلسفة التاريخ العربي

اذا تصفحنا آراء المؤرخين العرب في الاسباب التي دفعتهم الى تصنيف مصنفاتهم وتحبير مقالاتهم وجدنا أنّ التاريخ في نظرهم « ابو العبر والمواعظ » فهم به يستنيرون عما حلّ بالامم السالفة من العقاب الصارم لتجاهلها الاوامر المنزلة في الكتب السماوية ولطغيانها و بغيها وتجردها عن الاخلاق وتخليها عن الفضائل واستحسانها الرذائل واستهجانها الخير فيري الملوك والحكام والولاة أن الظلم مصرعهُ وخيم وان الحلم والكرم والسياسة والدهاء والشجاعة وغيرها من الصفات مدعاةٌ لاكتساب محبة الرعية ونجاة من الزلل والغضب السماوي . و بعبارة واضحة جلية فهم يكتبون التاريخ لفائدته الدينية الاخلاقية كيما يزهد العتاة و يعتبر الغافلون وإني موردٌ لك الآن ما وقعت عليهِ يدي من الدلائل على صحة ما قدمناهُ فيقول ابن الاثير « إنّ الملوك ومن اليهم الامر والنهي اذا وقفوا على ما فيها من سيرة اهل الجوْر والعدوان ورأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس فيرويها خلفٌ عن سلف ونظروا الى ما اعقبت من سوء الذكر وقبيح الاحدوثة وخراب البلاد وهلاك العباد وذهاب الاموال وفساد الاحوال استقبحوها وأعرضوا عنها واطرحوها واذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم وان بلادهم وممالكهم عمرت واموالها درت استحسنوا ذلك ورغبوا فيهِ وتنافسوا عليهِ وتركوا ما يُنافيهِ . هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرة الاعداء وخلصوا بها من المهالك واستصفوا نفائس المدائن وعظيم الممالك . . . . ومنها ما يحصل للانسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير اليهِ عواقبها فانهُ لا يحدث أمر الاّ قد تقدم هو او نظيره فيزداد بذلك عقلاً . . . ومنها ان العاقل اللبيب اذا . . . رأى تقلب الدنيا باهلها . . . زهد فيها واعرض عنها وأقبل على التزود للاخرة منها » (١)

وهاك ما يقولهُ المقدسي مؤلف الروضتين فهو يؤيد ابن الاثير في فلسفته « وقد اختار الله سبحانهُ لنا أن نكون آخر الامم واطلعنا على انباء من تقدم فنتعظ بما جرى على القرون الخالية ونعيها آذانٌ واعية ونقتدي بمن تقدمنا من الانبياء والائمة والعلماء » (٢)

وهذا حاجي خليفه فتراهُ يحذو حذو ابن الاثير والمقدسي فيقول في عنوان علم التاريخ

(١) ابن الاثير المقدمة صفحة ٤ — ٥ من كتاب الكامل (٢) المقدسي ص ٣

« التاريخ هو معرفة احوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع اشخاصهم وانسابهم ودياناتهم الى غير ذلك وموضوعهُ احوال الاشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك وغيرهم . . . والغرض منهُ الوقوف على الاحوال الماضية وفائدتهُ العبرة بتلك الاحوال والتضلع بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن يحترز عن امثال ما نقل من المضار و يجتلب نظائرها من المنافع وهذا العلم كما قيل عمرٌ آخر للناظرين والانتفاع في معمره غنائم تحصل للسافرين »(١)

و يعتقد ابن شاكر الكتبي صاحب « فوات الوفيات » انَّ « علم التاريخ مرآة الزمان لمن تدبر ومشكاة انوار يطلع بها على تجارب الامم ممن امعن النظر والتفكر وكنت من اكثر تكثيرٍ المطالعة واستقى من فوائدهِ المراجعة »(٢)

وراجع كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » تأليف الشيخ المقريزي تجدهُ موشًّا بالفائدة الدينية الاخلاقية التي تصدر عن التاريخ ولذا عنوَن كتابهُ بكلمات المواعظ والاعتبار فهو يقول « علم التاريخ من اجل العلوم قدراً واشرفها عند العقلاء مكانة لما يحويهِ من المواعظ والانذار بالرحيل الى الآخرة عن هذه الدار والاطلاع على مكارم الاخلاق ليقتدى بها واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها اولو النهى »(٣)

و يخبرنا جمال الدين ابو المحاسن يوسف ابن تغردي بردي الاتابكي مؤلف « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » انهُ لم يقدم على تصنيف كتابهِ إلاَّ « لتعاين من تقدم آثارهم وتشاهد منازلهم وديارهم وتسمع كما وقعت وجرت اخبارهم فتخبر بذلك من تأخر عصرهُ من الاقوام بانواع المحابر وألسن الاقلام ليقتدي كل ملكٍ بعدهم بجميل الخصال و يتجنب ما صدر منهم من اقتراح المظالم وقبيح الفعال »(٤)

كذلك هلال الصابئ صاحب « تحفة الامراء في تاريخ الوزراء » يُعلنُ ان التاريخ يعرّفُ فضائل الاخلاق وعوائد الخير و يُحرك في النفوس الابية التطلع الى السير على منوالها والاقتداء بجميل الخصال وحميد الفعال فيروي لنا في مقدمتهِ « لما رأيت المتقدمين من اهل المعرفة قد اشركوا من بعدهم فيما وصلوا اليهِ من الفائدة بعلوم ادركوها قبلهم

(١) مقدمة كتاب كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون للحاجي خليفة نشره Gustavus Fluegel, Leipzig ج ٢ ص ٩٥ — ٩٦

(٢) فوات الوفيات ص ٢ (٣) المقريزي المقدمة ص ٢ (٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ليدن سنة ١٨٥١ بعناية T. G. J. Juynboll, B. F. Hatthes ص ٢

نخلوها بالجمع والتأليف واحاديث سمعوها عن من تقدم منهم نحدوهم بالتسطير لئن لحقهم وجدت ذلك من افضل ما افتقده المقتفون اذ لولا هذه الطريقة لما عرفت فضائل الاخلاق فاستحسنت ورذائل الافعال فاستهجنت وعوائد الخير فطلبت وعواقب الشر فاجتنبت واي حديث اوقع وذكر انفع من الاخبار بجاري الامور التي ما زال ارباب الهمم الشريفة يتطلعون الى امثالها ليجعلوها لقاحاً لآدابهم وصفاء لاذهانهم وتذكرة لقلوبهم ورياضة لعقولهم فعلوم ان لا وجدان اقرب ولا ادراك اطيب من ان يأخذ الانسان عند ما كدت الفطن في استخراجه وبُحثت القرائح لاستنباطه ويُعلم على سلامة من الخطار وأمن من العثار ما بان الخطأ والصواب من مجاريه فيهتدي بذلك مهتد ويقتدي مقتد ويستفيد مستفيد ويستزيد مستزيد »(١)

وترى هذه الفلسفة الدينية الاخلاقية الصادرة عن دراسة التاريخ بارزة تماماً في مقدمة معجم البلدان لياقوت فيستشهد على صحتها بالآيات القرآنية فيقول « لم اقصد بتأليفه لهواً ولا رغبة ولا حنيناً استفزني الى وطن ولكن رأيت التصدي لهُ واجباً أوقفني عليهِ الكتاب العزيز الكريم وهو قولهُ « أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » و « قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين» وقد تعذر اسباب النظر فيتعين التماس الخبر فوجب لذلك علينا إعلام المسلمين بما علمناهُ فانتفاءُ اذ كان الافتقار الى هذا الشان يشترك فيهِ كل من ضرب في العلم بسهم » (٢)

والقفطي المؤرخ الوزير المشهور بكتابهِ « بأخبار الحكماء » يخبرنا غير من ذكرنا آنفاً في اعتقادهم ان التاريخ مطالعات للاعتبار بمن مضى فيكتب « عزمت على ذكر من استقصر ذكرهُ من الحكماء من كل قبيلة وامة قديمها وحديثها الى زماني وما حفظ عنهُ من قول انفرد بهِ او كتاب صنفهُ او حكمة علية ابتدعها ونسبت اليهِ فاني رأيت ذلك من الامور التي جهلت والتواريخ التي هجرت وفي مطالعة هذا اعتبار بمن مضى وذكر من خلف » (٣)

صار مؤرخو العرب الاندلسيون والافريقيون ايضاً سير مؤرخي العرب المشرقيين

(١) تحفة الامراء في تاريخ الوزراء طبع في بيروت بمطبعة اليسوعيين سنة ١٩٠٦ Edited by H. F. Amedroz ص ٢ (٢) ياقوت معجم البلدان ص ٣

(٣) القفطي ص ٢ المقتدمة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٦ هـ

في ان التاريخ يكسب المرء تجربة وعقلاً فاقدموا على تدوينه ودراسته والاهتمام به اهتماماً زائداً فألمع لسان الدين الخطيب المؤرخ في مقدمة كتابه « الاحاطة في اخبار غرناطة » بما يأتي قال « ولما كان فن التاريخي مأرب البشر ووسيلة الى فهم النشر يعرفون به انسابهم في ذلك شرعاً وطبعاً ما فيه يكتسبون به عقل التجربة في حال السكون والرفيه ويستدلون ببعض ما يبدي به الدهر وما يخفيه ويرى العاقل من تصريف قدرة الله تعالى ما يشرح صدره بالايمان ويكفيه »(١)

ويقول احمد بن خالد الناصري السلاوي المؤرخ مؤلف « الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى » ما يلي « قال الشافعي ما معناه : قرأت علم التاريخ كذا وكذا سنة وما قرأته الاّ لاستعين به على الفقه » قلت : معنى كلام الشافعي هذا ان علم التاريخ لما كان مطلعاً على احوال الامم والاجيال ومفصحاً عن عوائد الملوك والاقيال مبيناً من اعراف الناس وازيائهم ونحلهم وادیانهم ما فيه عبرة لمن اعتبر وحكمة بالغة لمن تدبر وافتكر كان معيناً على الفقه ولا بدّ وذلك ان جل الاحكام الشرعية مبنيٌّ على العرف وما كان مبنياً على العرف لا بد ان يطرد باطراده وينعكس بانعكاسه ولهذا ترى فتاوي الفقهاء تختلف باختلاف الاعصار والاقطار بل والاشخاص والاحوال ولله در ابن الخطيب يقول :

وبعد فالتاريخ والاخبار فيه لنفس العاقل اعتبار
وفيه للمتبصر استبصار كيف اتى القوم وكيف صاروا
يجري على الحاضر حكم الغائب فيثبت الحق بهم صائب
وينظر الدنيا بعين النبل ويترك الجهل لاهل الجهل

وقال آخر :

ليس بانسان ولا عاقل من لا يعي التاريخ في صدره
ومن روى اخبار من قد مضى اضاف اعماراً الى عمره »(٢)

كل ما اثبتناه واستشهدنا به من اراء ابن الاثير والمقدسي وحاجي خليفه وابن شاكر الكتبي والمقريزي وجمال الدين ابي المحاسن والصابئ وياقوت الرومي ولسان الدين الخطيب والناصري السلاوي يظهر لنا حقيقة ناصعة وهي ان العرب المؤرخين لم يدونوا التاريخ الاّ ليعينهم على تفهم امور الدين ويهديهم الصراط المستقيم في الاخلاق والسلوك

(١) الاحاطة في اخبار غرناطة ص ٤ (٢) ص ٢ المقدمة

واذن فمعظم مؤرخينا الاقدمين كانوا من القضاة المتفقهين والشيوخ الاتقياء الداعين الى الصلاح والعدل والعظة وعمل الخير لان صناعتهم الدقيقة اقتضت ذلك ولان العلوم كانت مشتبكة لا يتخصص احد في فرع من الفروع العلمية كما هو الحال عندنا اليوم بل يدرسها كلها فتجد العالم الفقيه مؤرخاً وطبيباً ومشرعاً او اديباً يشغل منصباً من المناصب

ذكرنا ان من اكبر الاسباب في تدوين العرب للتاريخ هي الفائدة الدينية الاخلاقية التي تعين الفرد والجماعات في مغامرة هذه الحياة والآن نقول إن اللذة العقلية التي يشعر بها المؤلفون المرتاحون لمواضيعهم حركت كثيراً من مؤرخي العرب على خوض ساحات التاريخ فالفوا فيه الكتب وصنفوا فيه المصنفات و بذلوا من اجله الجهود فجابوا الافاق ورحلوا الى الجهات لإكفاء هذه اللذات العقلية فيذكر لنا ابن خلكان صاحب وفيات الاعيان ان ولوعه بالاطلاع على اخبار الماضين دعاهُ الى تأليف كتابه فيقول « هذا مختصر في التاريخ دعاني الى جمعه اني كنت مولعاً بالاطلاع على اخبار المتقدمين من اولي النباهة وتاريخ وفياتهم ومواليدهم ومن جمع منهم كل عصر فوقع لي منهُ شيء حملني على الاستزادة وكثرة التتبع افضت الى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن واخذت من افواه الائمة المتقنين لهُ مالم اجدهُ في كتاب ولم ازل على ذلك حتى حصل عندي منهُ مسودات كثيرة في سنين عديدة (١) »

وتصدي ياقوت لجمع ارشاد الاريب الى معرفة الاديب « لفرط الشغف والغرام والوجد بما حوى والهيام لا لسلطان اجتديه ولا لصدر ارتجيه غير اني ارغب الى الناظر فيه ان يترحم عليّ . وهو يصرح انهُ ألفهُ لا ليكتسب منهُ المعاش والمعاش ضيقٌ من شق القلم وقد ضنّ بهِ على النساخ لانهُ منهُ بمنزلة الروح من جسد الجبان وهناك حدثه عن كتابه « رآني جماعة من اهل العصر وقد نظمت لألىء هذا الكتاب فاستنسخوهُ واستموهُ ليستنسخوهُ فوجدت في نفسي شحّاً عليهم لانهُ مني بمنزلة الروح من جسد الجبان والسوادين من العين والجنان مع كوني غير راضٍ لنفسي بذلك المنع لكنها طبيعة عليها جبلت حتى قلت

ولو انني انصفتهُ في محبتي لجلّدتهُ جلدي وصندقتهُ عظمي

« واعلم انني لو أعطيت النعم وسودها وحقائب الملوك و بنودها لما سرني ان يسلب هذا الكتاب الى سواي لما قاسيت في تحصيله من الشقة وطويت في تكميله من طول الشقة

(١) ابن خلكان باريس ص ٢

فاني علم الله لا أحصي ما وقفت على الابواب للفوائد فيهِ . . . وهو كتاب اسهرت لذ فيهِ طرفي ... واستشعر لهُ امرين منعهما قلة الانصاف احدهما ان يقال هل هو الاَّ تصنيف رومي ممزوج وما عسى ان يأتي بهِ وليس في ابناء جنسهِ لهُ نظير وما كان سيف امتهِ رجل حطير لاستيلاء التقليد على العالم والتبليد فهم لا ينظرون ما قيل إنما يسألون عمن قال والامر الآخر قصور الهمم الغالب على اكثر الامم اذ كل همهُ تحصيل المأكول والملبوس ولا تسمو همتهُ الى تشريف النفوس — واعلم حياك الله بين رعايتهُ ان هذا الفن من العلم ليس من بابهِ من يطلب العلم للمعاش او ليحصل الزينة ولا هو مما ينفق في المدارس او يناظر بهِ في المجالس انما هو علم الملوك والوزراء والجلة من الناس الكبراء يجعلونهُ ربيعاً لقلوبهم ونزهة لنفوسهم »[1]

وكان المقريزي مفتوناً باخبار مصر بلده ومولده فقال — « مصر هي مسقط رأسي وملعب اترابي ومجمع نامي ومغنى عشيرتي ... ولا زلت منذ شدوت العلم . . . ارغب في معرفة اخبارها واحب الاشراف على الاعتراف من ابارها واهوى مسائلة الركبان عن سكان ديارها فتيقدت يخطي في الاعوام الكثيرة وجمعت من ذلك فوائد قلّ ما يجمعها كتاب او يحويها لعزتها وغرابتها »[2]

ويصف لنا المجبي صاحب « الاثر في اعيان القرن الحادي عشر » شدة ولوعهِ بقراءة التاريخ وحبهِ لتدوينهِ منذ صغرهِ فيروي « منذ عرفت اليمين من الشمال وميزت بين الرشد والضلال لم ازل ولوعاً بمطالعة كتب الاخبار ومغرى بالبحث عن احوال الكمّل الاخيار وكنت شديد الحرص على خبر اسمعهُ او على شعر تفرق شملهُ فاجمعهُ خصوصاً لمتأخري اهل الزمن المالكين لازمة الفصاحة من كل ملك واميرٍ واما وادبٍ حتى اذا اجتمع عندي ما طاب وراق وزُين بمحاسن لطائفة الاقلام اقتصرت منهُ على اخبار المائة التي انا فيها . . . »[3]

ثم جاء المرادي مصنف « سلك الدُرَر في اعيان القرن الثاني عشر » بعد ذلك يثبت شغفهُ وانهماكهُ في علم التاريخ فيقول « اني لم ازل منذ أُميطت عني التمائم ونيطت بي العمائم شغفاً بمطالعة اخبار الاخيار مولعاً بجمع آثار الفضلاء من نظام ونثار مكبًّا على الكتب التاريخية منهمكاً في جمع الدواوين الاخبارية تدعوني الى ذلك غيرة الفضل كل آونة ويحثني عليهِ حمية الادب فتطرد عن عيوني عيون السنة . . . علماً مني بانّ علم

(١) ياقوت ص ١٢ — ١٣ (٢) المقريزي ص ١٣ (٣) المجبي ص ٢ — ٣

التاريخ والاخبار ونقل المناقب وحفظ الآثار امرٌ مهم عظيم وشيءٌ خطر جسيم طالما صرف فيه المحدثون اوقاتهم . . . . وضربوا فيه آباط الابل للبلاد النائية وتحملوا في جمعه المشاق الملاكم القاصية . وقد أُلف فيه الكبار من العلماء المؤلفات العديدة المثيل لانهُ العمدة في نقل اصول الدين . . . . وكان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يحدث اصحابهُ بقصص واخبار من مضى حتى لا يفتري الكلال ما في همتهم من المضاء . . . وقد قال العلاَّمة ابو جبان في وصيته لاولاده « وعليكم بمطالعة التواريخ فانها تلقح عقلاً جديداً »[1]

لا بدَّ لنا بعد ان رو ينا ما رو ينا ان نعتقد ان اللذة العقلية التي ليس من ورائها ربح مادي او جاه عريض كانت دافعاً كبيراً ومحركاً داخلياً عظيماً لبعض المؤرخين العرب على سهر الليالي في سبيل البحث والتنقيب والتمحيص والتدقيق وهذا لا ينفي البتة انَّ فئة منهم ألَّفت الكتب ارضاء لاسيادها من الخلفاء والامراء والولاة والقواد ولعبت بالمتائق فاتجهت انظارها الى تدوين محامدهم وغضَّ الطرف عن مساوئهم وقد قام غيرهم يؤلفون الكتب التاريخية انتصاراً لحزب على حزب وشيعة على اخرى وتنياً لاراء يظنونها بهتاناً وزوراً مما يحتاج الى بحث خاص مطوَّل

لم تكن الفائدة الدينية الاخلاقية او اللذة العقلية كل الاسباب التي حملت المؤرخين العرب على تدوين التاريخ بل كان هنالك سبب ثالث في عُرفنا وهو اعتقاد بعضهم ان التاريخ مجموعة آداب ومطالعات وروائع اشعار واخبار هي حديث السمر وفاكهة السهر لا بدَّ للاديب المتثقف من الوقوف عليها ومعرفتها كيما لا ينسب اليه الجهل في المجالس ولا يعتريه الخجل اذا سئل عن امر او عُرضت عليه مسئلة بل يكون ملمّاً ببعضها او ساميّاً بها على الاقل فيذكر ابن قتيبة الدينوري في مقدمة كتاب المعارف « هذا كتاب جمعت فيه من المعارف ما يحق على من أنعم عليه بشرف المنزلة واخرج بالتأدب عن طبقة الحشوة وفُضل بالعلم والبيان على العامة ان يأخذ نفسه بتعليمه و يروضها على تحفظه اذ كان لا يستغنى عنهُ في مجالس الملوك إن جالسهم ومحافل الاشراف إن عاشرهم وخلق اهل العلم إن ذاكرهم فانهُ قلَّ مجلس عقد على خير وامس مرشد . . . الاَّ وقد يجري فيه سببٌ من اسباب المعارف إما في ذكر نبي او ذكر ملك اوعالم او نسب او سلف او زمان او يوم من ايام العرب فيحتاج من حضر الى ان يعرف عين القصة ومحل القبيلة وزمان الملك

(١) المراغي ص ٣ سطر ٤

وحال الرجل المذكور وسبب المثل المشهور . فاني رأيت من الاشراف من يجهل نسبه ومن ذوي الاحساب من لا يعرف سلفه ومن قريش من لا يعلم من اين تمت القرابة برسول او الرحم به علاه من صحابته ورأيت من ابناء العجم من لا يعرف حال بلده وزمانه الخ .. وقد يكون الرجل متبوعاً في الادب آخذاً بالحظ الاوفى منه الا انه افضل شيئاً من الجليل كان اولى به من بعض ما حفظه كطالب على النحو وتصاريفه وهو يعنى في رقعه إن كتبها وبيت شعر ينشده [1] »

وهاك فلسفة الاسحاقي في التاريخ فتجد انه لا يميز بين الادب وعلم التاريخ بل يعتبر الاخير على ما يظهر فرعاً من الاول « لا يخفى على كل ذي ذوق سليم ان فن التاريخ من فاكهة المفاكهة بالغاية القصوى ونهاية الشأن في الطلاوة والجدوى لانه توفيم وقائع الزمن .. فكم صدر في الصدر الاول من عجائب يتوقف منه عليها وغرائب احوال تهتدي بسطور الطروس اليها وما برح المؤرخون يتناولون المقبول من المنقول عن الدول والمناصب فمن متقن منتق ومن جامع مكثر . . . فعن لي ان أحبر ما يليق بالجمع وأسطر ما يروق بالسمع « من حكايات باهرة وآثار من ولي مصر والقاهرة ذاهباً مذهب الايجاز والتهذيب آخذا عن النقل المبرإ من التكذيب مما سمعت فوعيت وجمعت فاوعيت مع ايراد ما شاهدته في الزمن عياناً وحققت عن معنى نوادره البديعة بياناً فكان كتاباً أنيساً تجل مؤانسته وتستروح اليه النفوس وتجد في مطالعته ما تجد في معاطاة الكؤوس » [2]

ثم ان الناس عامة وكثيراً من الادباء كانت فكرتهم غامضة في التاريخ فهو كما ترى غرائب الاخبار ونوادر الاشعار والحكايات والطرائف المستملحة فيذكر لنا ابن بطوطه كيف صدر اليه الامر العالي في فاس بتدوين كل ما ذكرنا قال الراوي « ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا ونفذت الاشارة الكريمة بان يملي ما شاهده في رحلته من الامصار وما علق بحفظه من نوادر الاخبار واوليائها الابرار فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخاطر وبهجة المسامع والنواظر من كل غريبة افاد باجتلائها وعجيبة اطرف بانتمائها » [3]

انيس زكريا النصولي

---

(١) المعارف مطبعة الفتوح الادبية بمصر ص ١ — ٢

(٢) الاسحاقي المقدمة ص ٢ — ٣

(٣) ابن بطوطة « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » ص ٢